الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الثقافة والفنون

المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ

بطاقة الحصر

آلة العود ... الممارسات المهارات وفنون الأداء

-الجزائر-

ملف تصنيف آلة العود ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للإنسانية –الجزائر-

I. تعريف العنصر

"العود" آلة موسيقية وترية مصنوعة من الخشب، تكون على شكل نصف فاكهة الكمثري، موصولة برقبة بنهايتها مفاتيح (عْصَافَر) وتشد بها 5 أو 6 أوتار مزدوجة.

صورة توضح أجزاء العود حسب التسميات المشرقية[1]

يكون العزف على العود بواسطة أداة تكون من ريشة طير (ريشة نسر أو جزء من قرن مبري) أو بواسطة قطعة بلاستيكية أو من السليكون التي تتخذ لغرض هزّ الأوتار من أجل إصدار الموسيقى والأنغام. من أنواعه: العود العراقي، العود السوري، العود المصري أو ما يطلق عليه في الجزائر بالعود الشرقي مقارنة مع ما يعرف في الجزائر بالعود العرْبي (بتسكين حرف الرّاء) الذي يتلاءم مع طابع "المالوف" المنتشر في الشرق الجزائري. يتكوّن هذا العود من أربع خيوط مزدوجة ويتضمّن ثلاث قمرات. كما نجد آلة العود عند أمم أخرى، كالأتراك واليونان وبلاد الفرس.

أما العود الذي ظهر في الحضارة الأندلسية، فبه 4 أوتار مزدوجة زائد الوتر الذي أضافه زرياب ليصبح ذي خمسة أوتار. ويختلف على العود العرَبي (الشرقي) من ناحية القياسات.

في الجزائر يتكوّن العود من:

1. صندوق مصوت ويسمى أيضا القصعة أو ظهر العود الذي يكون فوقه الصدر أو الوجه (الوتش حسب التسمية المحلية لمنطقة الوسط الجزائري) به فتحات توضع فوقها الشمسية أو ما يعرف بالقمرات لتساعد على زيادة حدة الصوت وقوته.

[1] www.maquam.org

2. على الوجه يوجد الفرس (الكرسي) ويستخدم لربط الأوتار بالقرب منه مضرب الريشة (الترييشة).
3. الرقبة أو زند العود أو اليد وهي امتداد طويل يخصص لمدّ الأوتار.
4. الأنف أو العظم (العظمه أو العتْبه) وتوضع في رأس زند العود من جهة المفاتيح لإسناد الأوتار ورفعها عن الزند وهي الحد الفاصل ما بين اليد والرأس.
5. الرأس (بيت المفاتيح) هو المنطقة العليا التي تتضمن المفاتيح "العْصافَر".
6. المفاتيح أو الملاوي (العْصافَر) وعددها 12 مفتاحا وتستخدم لشد أوتار العود.
7. الأوتار وهي خمس أوتار مزدوجة ويمكن ربط وتر سادس إلى العود.
8. الريشة التي تستعمل في العزف وهزّ الأوتار من أجل اصدار الموسيقى والأنغام

II. حرفة صناعة العود في الجزائر:

تعد صناعة العود في الجزائر من بين المعارف والمهارات القديمة التي توارثها صناع الآلات الموسيقية جيلا عن جيل، إلا أنها أصبحت اليوم تعرف تراجعا ملحوظا نتيجة غزو الآلات المستوردة والمصنعة التي تكون تكلفتها أقل، وبسبب قلة الاهتمام بتعلم الحرفة بشكل عام مقابل ما تقترحه الحياة للأفراد من فرص عمل بديلة. إلا أنه لحد اليوم لا يزال بعض كبار الحرفيين في هذا الميدان واقفين على رأس حرفة صناعة العود بشكل خاص لما تقدمه هذه الآلة من فن وعلاج نفسي.

صورة لصناعة آلة العود –
ورشة محمود خلفاوي لصناعة وتصليح الآلات الموسيقية-ولاية تقرت

تمرّ صناعة آلة العود بالمراحل التالية:

1/ تحضير الخشب الذي ظل محفوظا لسنوات بمكان جاف تفاديا للرطوبة. ويكون هذا الخشب من شجرة الجوز أو الأكاجو أو الأبونس أو الزان أو أبانوس أو السيدر أو خشب الورود....، ويقول الحرفي جمال نيفر المختص في صناعة الآلات الموسيقية، أنه هنالك قرابة 20 أو 30 نوع من الخشب المستعمل في هذه الصناعة التقليدية.

2/ يأخذ الحرفي القالب المخصص لصناعة آلة العود، والذي يمكن أن يكون من صنعه، بعدها يباشر في قص الخشب ليصنع به ما يسمى "بالضلعة" والتي تكون بمقاييس القالب، والتي بالعادة تكون بطول 72 أو 73 سنتيمتر على سمك 2 إلى 3 سنتيمتر. بعد ذلك يقوم بتسخين القطعة على فرن خاص أو بأنبوب نافخ للحرارة من أجل التحصل على تقويس معين. تتطلب صناعة العود حوالي 15 إلى 17 ضلع، يجمعها الحرفي مع بعضها البعض بغراء خاص (الغراء الأبيض) ليعطي ما يسمى "بالقصعة" أو ما يعرف "بظهر العود".

3/ بعدها يباشر الصانع في عملية رصف ولصق الضلوع بداية من وسط القالب، وذلك على مراحل، بمتوسط لصق قطعتين أو ثلاثة في اليوم. تأخذ هذه العملية قرابة الاسبوع من أجل الانتهاء منها ومن أجل أن تجف وتتماسك. يقول الحرفي "جمال نيفر"، أنه من المهارات والابتكارات التي نقلها عن أبيه "محمد النيفر" الذي علمه هذه الحرفة، أن يخلط هذا الغراء ببعض التحضيرات النباتية (مثل نبات القندول) من أجل تقوية مفعول الغراء.

4/ بعدما تصبح القصعة جاهزة يطليها بالغراء من الداخل ويدعم أواصرها بفتات النشارة وورق الكرافت المقوى. ثم يحنو إلى صقل وجهها.

5/ ينتقل بعد هذه المرحلة إلى إعداد " الوجه" الذي يصنع بداية من فلقتين متساويتين تلصقان مع بعضهما البعض لتعطيا قطعة واحدة. ويستعمل في ذلك خشب "الصنوبر" (الابيسيا bois épicéa) أو خشب شجرة الأرز "القرقمان". وقبل تثبيتها على هيكل القصعة، يثبت على ظهر الوجه بالغراء 4 أو 7 مساطر خشبية من أجل مد جسور رفيعة لتدعيم الفلقتين.

6/ في هذه المرحلة يباشر الحرفي في خرط " القمرة" التي يخرج من خلالها الصوت وتسمى "شجرة الحياة" أو "مخرج الألحان". في العموم هي عبارة عن 3 قمرات مستديرة الشكل، تأخذ شكلا هندسيا يقطع بشكل دقيق حسب رشمة الحرفي. يقول السيد "جمال نيفر" أن ذلك يتم بشكل يدوي بآلات حادة قد يصنعها الحرفي بنفسه. كما أكد لنا أن أبوه قد استعمل الصدف وعظم الجمل من أجل اعطاء البعد الجمالي للقمرات التي كان يصنعها. أما اليوم فقد استعملت مادة البلاستيك ومادة الميلامين في ذلك وتقنيات قطع الرشيم بالليزر.

7/ بعد لصق الوجه على القصعة وبعد تثبيتهما، يعمد الحرفي إلى تثبيت "اليد" أو "الزند" الذي ينتهي بـ "بيت المفتاح" أو الرأس من خلال ادخال هذه اليد في تجويف المخصص لذلك مسبقا بداخل القصعة. على مستوى نهاية "العنق"، تثبّت المفاتيح "لعصافَر" وهي من الصنع اليدوي للحرفي. أما "العتبة"، فهي قطعة صغيرة مستطيلة الشكل توضع كحد فاصل ما بين اليد والرأس، وتكون من العظم أو الخشب أو البلاستيك.

صورة توضح يد ورأس العود بعصافره

8/ ثم تأتي مرحلة صقل الآلة ووضع الديكور على مستوى الوجه والحواشي " بالصدف" أو قطع رفيعة من الخشب. حيث يحفظ مكان "التريشة" وهي منطقة هز الأوتار حين العزف وتكون فوق منطقة "الكرسي" الذي هو عبارة عن فاصل من الخشب تثبت فيه الأوتار.

9/ مرحلة تثبيت الأوتار. في الأصل هذه الأوتار تصنع من أمعاء الحيوانات. وقيل إنه وإن تعددت مصادرها الحيوانية، إلا أنه في العادة مصدرها من أمعاء الغنم. ويتراوح سعرها ما بين 6000 دج إلى 20000دج، وهي من المواد التي تستورد لهذا الغرض. ويوجد من الأوتار ما هو مصنوع من الحرير أو حتى من النايلون المصقول بمادة الألومينيوم. وهي عبارة عن خيوط فضية اللون. يكون سمكها يتراوح ما بين الرقيق والمتوسط والغليظ، وحين التركيب من أجل الغرض الموسيقي تركب حسب ما يعرف "بالشايب والشباب" أي 1 /2 أو 3/1، بمعنى خيط رقيق آخر أغلظ منه. 10/ تخرج الأوتار من رأس العود مرورا بالكرسي للتحصل على الشكل النهائي لهذه الآلة، حيث تتحكم العصافر في دقة شدها حسب الغرض الموسيقي. وحسب الحرفي "جمال نيفر"، تستغرق صناعة العود إذا صُنع بطريقة تقليدية بحتة، حوالي مدة شهر.

صورتان وجه وظهر لآلة العود العربي من صنع جمال نيفر / العفرون -البليدة

صورة توضح علامة الصناعة الحرفية للآلات الموسيقية ومن بينها العود لعائلة نيفر- الجزائر

III. انتشار ممارسات وفنون الأداء المرتبطة بآلة العود في الجزائر

إنّ تواجد آلة العود بالجزائر مرتبط بتاريخ تواجد الموسيقى الأندلسية التي نتيجة التمازجات الثقافية المحلية انبثقت منها أنواع موسيقية أخرى كالحوزي والحوفي، والعروبي والمالوف حيث اقتصرت استعمالاته في البداية على المنطقة الشمالية من الجزائر، من منطقة تلمسان إلى منطقة قسنطينة، لكن سرعان ما لبث وانتشر في كافة أرجاء الوطن، من شماله إلى جنوبه، حيث تجاوبت أنغامه مع مختلف الطبوع الموسيقية.

الفنان عثمان بالي

على هذا الأساس، نجد العود في أقصى الجنوب الصحراوي، عند الطوارق، حيث كان المرحوم "عثمان بالي من بين الأوائل الذين أبدعوا في مزج موسيقى "التّيندي" المحلية وايقاعاتها مع نغمات العود. والجميل أنه لم تطغَ موسيقى العود على اللون الموسيقي المحلي، بل واكبته وأصبحت تمثل قيمة جمالية مضافة له. وبتطور الموسيقى الترقية المعزوفة بآلة العود، أصبح هذا الطبع نوعا مميزا يحظى بشعبية خاصة عند الطوارق، وفي الجزائر عامة، حيث أصبح يعتبر لونا معاصرا بالمقارنة مع الموسيقات التقليدية المتواجدة في المنطقة، على غرار آلة "الامزاد".

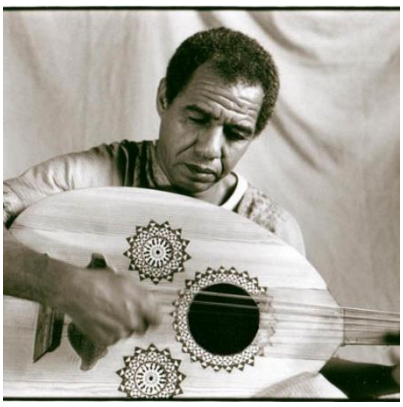

الفنان علا الفوندو

ناحية الجنوب الغربي، يمكن تمييز طبوع معينة مرتبطة بآلة العود، طوّرها فنانون بارزون من منطقة بشار من أمثال الفنان "عبد العزيز عبد الله بن مبارك" المعروف باسم "عَلا الفوندو"، الذي أبدع في استعمال هذه الآلة الوترية، والذي طوّر موسيقاها حتى باتت تستعمل في مجال العلاج النفسي، لما تقدمه هذه المعزوفات من راحة نفسية وجسدية تساعد على الاسترخاء. فعادت مهاراته الفنية وسيلة جديدة لأداء الأغاني التراثية بأسلوب ارتجالي يجمع بين البعد الإفريقي، العربي والزناتي للمنطقة.

صورة لمعلم تذكاري بولاية بشار إشادة بانتشار ثقافة العود في المنطقة

الفنان عبد الكريم دالي

يتواجد العود أيضا في أقصى الشمال الغربي، في تلمسان وضواحيها، عند الحاج "عبد الكريم دالي" الذي اقترن اسمه بأغنية "صحة عيدكم" التي تغنى في الأعياد الدينية والذي يعد شيخا محنكا في غناء الحوزي والذي تخرجت على أيديه أجيال عديدة تؤدي الموروث الغنائي الأندلسي.

الفنان أحمد وهبي

وفي منطقة وهران، برز في الخمسينيات من القرن المنصرم نجم الفنان "أحمد وهبي" الذي سامر العود واستنطق نغماته. فرغم تأثره الكبير بكبار فنانين المشرق العربي من أمثال محمد عبد الوهاب، ولكن هذا لم يمنعه من ترك البصمة الوهرانية في انغامه، حيث صنع لصوت العود مكانة في الموسيقى الوهرانية.

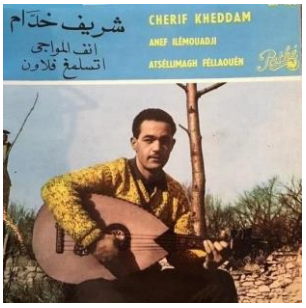

الفنان شريف خدّام

أما في الموسيقى القبائلية الأمازيغية، فقد أبدع الفنان" شريف خدام" بتلحيناته المستلهمة من أغاني الأشويق القبائلية التي وضع عليها لماسات معاصرة، والتي هي عبارة عن مزيج بين الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية وفن الطرب العربي الأصيل، الكل في قالب قبائلي جزائري عريق، حتى أصبح مدرسة عريقة يقتدى بها العديد من الفنانين من بعده والذين اعتمدوا أساسا في التلحين على آلة العود.

الفنان الحاج حمو الفرقاني

في قسنطينة، عرفت عائلة "الفرقاني"، وبالخصوص "الحاج حمو الفرقاني" وابنه محمد الطاهر الفرقاني المعروف بسلطان طبع المالوف القسنطيني، وأخوه الأكبر محمد الصديق الفرقاني المدعو زواوي الفرقاني بفنون الأداء على آلة العود.

IV. العزف على العود فن جماهيري وأداة بيداغوجية:

في أوركسترا الإذاعة والتلفزيون، ومنذ بداية البث، لم ينقطع تواجد العود في جميع الفرق ومع جميع الطبوع الغنائية الجزائرية، حيث نجده ممارسا من قبل الفرق المرافقة" للأياي" والنايلي والبدوي... عند كبار الفنانين، على غرار" خليفي أحمد" وغيره. كما لحنت العديد من الأغاني من طرف عوّادين (الممارسون للعود) مثل "معطي البشير" و" محمد بوليفا " و"عبد القادر حوتي " الذين لحنوا العديد من الملاحم والأغاني الخالدة في الذاكرة الجماعية الجزائرية.

تستعمل المدارس الثلاثة: الصنعة، المالوف، الغرناطي، المتواجدة في شمال الجزائر آلة العود رفقة آلة أخرى هي آلة "الكويترة" ذات الأربع أوتار والتي تشبهه إلى حد بعيد إلا أنها من ناحية الأوتار، هي ذات تعديل مختلف عنه. وإن كان العود آلة للعزف، فهو كذلك موضوع للكتابة، حيث نجد العديد من القصائد التي تذكر فيها آلة العود وآلة الرباب.

تعتبر الجمعيات المتخصصة في النوع الأندلسي من أكثر المؤسسات الفنية استعمالا لآلة العود. حيث تعتبر من الآلات المفضلة عند أساتذة الموسيقى في الجمعيات لما تقدمه من أريحية في العزف والتواصل مع التلاميذ، فهو أداة بيداغوجية بامتياز. كما تعد من الآلات المفضلة عند المبتدئين الذين يطمحون دوما ومنذ بداية تعلمهم لتحقيق هدف التمكّن من مغازلة العود.

طفل يتعلم العزف على آلة الكويترة

لا تخلو المعاهد والمدارس العمومية والخاصة من دروس مخصصة لتعليم أبجديات العزف على آلة العود والتي تحظى بمكانة خاصة عند الجزائريين المتذوقين لجميع الأنواع والطبوع الموسيقية المستعملة لهذه الآلة.

صور لمجموعة من طلبة جمعية الجنادية لتعلم الموسيقى / البليدة

إعداد: د. زهية بن عبد الله

بمساهمة كل من: الباحث محمّد محنك، والدكتور عبد الناصر بوردوز.